الدلالات اللغوية وأثرها في تفسير ألفاظ السنة النبوية

حسن بن إبراهيم بن فاضل العجمي

مشرف تربوي بوزارة التربية والتعليم بسلطنة عمان

وطالب بكلية معارف الوحي والعلوم الانسانية

الجامعة الإسلامية العالمية – ماليزيا

Ha44an@hotmail.com

الملخص

اجتهد العلماء قديماً وحديثاً في شرح ألفاظ وتراكيب السنة النبوية، يعتمدون على فهم اللغة ومعطياتها، وأهم أدوات هذه العملية هي الدلالات اللغوية المختلفة التي تمثل أدوات الشرح، ولهذا أدرس هذا الموضوع تحت عنوان: (الدلالات اللغوية وأثرها في شرح ألفاظ السنة النبوية). ويقع الموضوع تحت المحور التاسع عشر من محاور المؤتمر: السنة والبحث العلمي، ويكشف عن الأدوات التي استخدمها شراح الحديث في تفسير ألفاظ الحديث النبوي والدلالات المتنوعة في لفظ الحديث الشريف، مشكلة البحث: تتلخص في الإجابة عن الأسئلة الآتية: ما المقصود بالدلالات اللغوية؟ وما دورها في شرح ألفاظ وتراكيب ألفاظ السنة النبوية؟ وهل هناك اختلاف بين دلالات السنة النبوية والدلالات اللغوية العامة؟ والهدف العام من البحث: إماطة اللثام عن أدوات شراح الحديث في شرح ألفاظ وتراكيب ألفاظ السنة النبوية، ومنهج البحث يعتمد على المنهج الوصفي التحليلي للدلالات اللغوية في السنة النبوية وطرق شراح الحديث في الكشف عن المعنى، وخطة البحث تتكون من مقدمة وفيها أهمية الموضوع وسبب اختياره ومشكلة البحث ومنهج البحث، والمدخل: بين يدي الدلالات اللغوية والسنة

النبوية، والمبحث الأول: الدلالة الوضعية والصوتية وأثرهما في الشرح والتفسير، وفيه مطالبان: المطلب الأول: الدلالة الوضعية وأثرها في شرح الحديث النبوي، والمطلب الثاني: الدلالة الصوتية وأثرها في شرح الحديث النبيوي، المبحث الثاني: الدلالة الصرفية والنحوية وأثرهما في شرح الحديث النبوي، وفيه مطلبان: المطلب الأول: الدلالة الصرفية وأثرها في شرح الحديث النبوي، والمطلب الثاني: الدلالة النحوية وأثرها في شرح الحديث النبوي، والمبحث الثالث: الدلالة السياقية وأثرها في شرح الحديث النبوي، وفيه مطلبان: المطلب الأول: أنماط السياق ودوره في شرح الحديث النبوي، المطلب الثاني: دور السياق في تحديد المعنى داخل نص الحديث النبوي، ثم الخاتمة وفيها أهم نتائج البحث وتوصياته، وقائمة المصادر والمراجع، ومن أهم نتائج البحث: تمثل الدلالات الخمس الأساسية المنطلق الأول لشراح الحديث في شرح وتفسير ألفاظ حديث النبي صلى الله عليه وسلم، شملت الأحاديث النبوية على دلالات لم تكشفها الدلالة المعجمية ولا الدلالة الصوتية ولا الدلالة الصرفية ولا الدلالة النحوية، وإنما كشفت عنها الدلالة السياقية العامة لنص الحديث الشريف، يلعب سياق الحديث الشريف دوراً مهماً في تفسير اللفظ، فلا يمكن عزل اللفظ عن سياق في الشرح والتحليل، وهذا حال ألفاظ الحديث الشريف أيضاً.

الكلمات المفتاحية: السنة النبوية ، الدلالات اللغوية، الألفاظ، الشرح والتفسير.

المدخل: بين يدي الدلالات اللغوية والحديث الشريف

تتنوع أنواع الدلالة في اللغة العربية إلى خمس دلالات: الوضعية، والصوتية، والصرفية، والنحوية، والسياقية، وقد اعتمد شُّراح الحديث النبوي على هذه الدلالات في الكشف عن المعنى عند تفسير ألفاظ الحديث الشريف، وفي هذا المبحث نقف عند هذه الدلالات ونوضع المراد منها وكيف استخدمها شُّراح الحديث النبوي ، لكن نتعرف على المقصود من هذه الدلالات أولاً فيما يأتي:

أولاً: الدلالة الوضعية أو المعجمية هي المعنى المعجمي الإفرادي وهو مَدلولُ التركيب الأول للفظ، أو هو مُحصلة علاقات الكلمة بالكلمات الأخرى في المجال الدلالي نفسه، وهي الدلالة الوضعية التي تُمثِّل الحقيقة اللغوية عند الأصوليِّين (عمر، 1982، ص14)، والكلمة في المعجم لا تفهم إلا منعزلة عن السياق، وهذا هو المقصود بوصف الكلمات في المعجم بأنَّها مفردات، على حين لا توصف بهذا وهي في النص (حسان، 1979، ص323)، ومن ذلك قول ابن قتيبة: أصل الصَّلَاة الدُّعَاء (ابن قتيبة، 1397هـ، ج1ص167).

ثانياً: الدلالة الصوتية، اختلاف الوحدة الصوتية داخل الكلمة مما يترتب عليه اختلاف في المعنى، ويعرّف "بلومفيلد" الوحدة الصوتية بأنها "أصغر وحدة ذات طابع صوتي متميز يؤدي استعمالها إلى التفريق في المعنى"(البركاوي، 1411ه، ص80)، ومن ثم فإن عملية التقابل أو الاستبدال بين الوحدات الصوتية بالضرورة يؤدي إلى تغير دلالي يتجاوز التغير الصوتي إلى تغير في المعاني المعجمية أو الصرفية أو النحوية، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (رَحِم الله رجلاً قام من الليل، فصلَّى، وأيقظَ امرأتَه، فصلَّتْ، فإنْ أَبَتْ نَضحِ في وجهها الماء) (أحمد، 1995، ج7 ص213)، فالنضخ فوران الماء، ومثله النضح وكلاهما يعني خروج الماء من العين، غير أن الفرق بينهما أن النضخ أكثر قوة من النضح (الزمخشري، 1407ه، ج4 ص453)؛ لأن الوحدة الصوتية لحرف الخاء أقوى.

ثالثاً: الدلالة الصرفية، هي دلالة البناء اللفظي للكلمة على معنى معين، فمثلاً بناء (استخرج) يمكن تحليله إلي عده وحدات منها (است) وهو يدل على الطلب، و(خرج) التي تدل على المعني الأصلي، والصيغة وهي تدل على الزمن الماضي كذلك كلمة (يُخَاصم) يمكن تحليلها إلي عده وحدات أيضا منها

(يُــ) التي تدل على المضارعة، و(خصم) التي تدل على المعنى الأصلي، وألف المضارعة.(محمود، 1990، ص165).

رابعاً: الدلالة النحوية، هي اختلاف المعنى تبعاً لتغير أواخر الكلمات بسبب اختلاف العوامل الدَّاخلة عليها لفظاً أو تقديراً؛ لأن البنية اللغوية تُعدُّ نظاماً ذا عناصر يربط بينها علاقات أو قوانين محددة، وإن أي تحول يعرض لعنصر منها يُحدث تحولاً في بقيتها أو بعضها؛ بحيث لا يمكن فهم أي عنصر من عناصرها بدون النظر إلى الموقعية التي يشغلها والوظيفة التي يؤديها داخل النظام ككل وعلى مستواه اللغوي أيضاً.(عبد التواب، 1997، ص34)

فمثلاً في عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضى الله عنه عَنْ النبيِّ صلى الله عليه وسلم: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ..) (البخاري ج6 ص116، ح 4780)، ففي قوله: (مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ) يحتمل أن تكون (ما) موصولة أو موصوفة، فالمعنى على الموصولة: أعددت لعبادي الصالحين الذي لا تراه أي عين، والمعنى على الموصوفة: أعددت لعبادي الصالحين ما صفته لم تره عين قط.

خامساً: الدلالة السياقية، وهي المعنى العام المستفاد من النص عموماً، إذ لا يمكن فهم النص إلا من خلال قراءة كل محتوياته اللغوية والدلالية عامة، ومن المعلوم أن لكل لفظ معناه ودلالته المفردة عن السياق، وحين يكون في نسق واحد مع غيره من الألفاظ يجب أن تربطه بها علاقة دلالية واضحة، والسياق اللغوي علاقة أفقية تقوم في العبارة بين المفردات بوصفها وحدات معجميّة دلالّية، لا بوصفها وحدات نحوية، ولا أقسام كلامية عامّة. (عمر، 1998، ص69).

والبحث يتناول هذه الدلالات في السنة النبوية، والسُّنة في الأصل مأخوذة من السَّنن، وهو الطَّريق والوجه والقصد (ابن منظور، ج13 ص226)، قال الأزهري: السنة الطريقة المحمودة المستقيمة،

ولذلك قيل: فلان من أهل السُّنة، معناه من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة، والسُّنة: الطبيعة، وبه يفسر بعضهم قول الأعشى (الزبيدي ج13 ص344):

كَرِيماً شَمَائِلُهُ مِنْ بَنِي مَعَاوِيَةَ الأَكْرَمِيْنَ السُّنَنْ

والسنة في اصطلاح المحدِّثين: ما أُثِرَ عن النَّبي صلى الله عليه وسلم من قولٍ، أو فِعْلٍ، أو تقريرٍ، أو صِفةٍ خَلْقِيَّةٍ، أو سِيرةٍ سواء كان قبل البعثة أو بعدها، وهذا التَّعريف للسُّنة ينطبق تماماً على الحديث، فهُما مترادفان، يُوضع أحدهما مكان الآخر. (السباعي، 2000، ص47)

والمقصود بالألفاظ كلمات وألفاظ الحديث النبوي التي وردت في أحاديث النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

وشرح وتفسير الألفاظ المقصود به تحليل ألفاظ الحديث النبوي على نحو يكشف المقصود منها، ويبين المراد من دلالتها الشرعية والحكمية والمعرفية.

المبحث الأول: الدلالة الوضعية والصوتية وأثرهما في الشرح والتفسير

المعنى الوضعي أو المعجمي هو المعنى الموضوع للفظ في أصل وضع اللغة، وينظر لهذا المعنى المعجمي على أنه المعنى الحقيقي للفظ، فإذا انحرف عن هذا المعنى خرج إلى المعنى المجازي، وقد أدرك الشُّراح هذه الحقيقة عندما تكلموا عن دلالة كلمة (النور) فعن أنس رضي الله عنه أن رجلين خرجا من عند النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة وإذا نور بين أيديهما حتى تفرقا فتفرق النور معهما (البخاري، ج5، ص130، ح3805): فـــ(النور) في كلام العرب الأضواء المدركة بالبصر، ويستعمل فيما صح من المعاني ولاح، فيقال: كلام له نور، ومنه (وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ [آل عمران : 184]) ومنه قول الشاعر(الأصفهاني، ج16 ص416):

نسبٌ كأنَّ عليهِ من شمس الضُّحى نُوراً ومن فَلَقِ الصَّباح عَمُودَا

والله تعالى ليس كمثله شيء، فبين أنه ليس كالأضواء المدركة، و لم يبق للآية معنى إلا أنه أراد الله ذو نور السماوات والأرض، أي بقدرته أنارت أضواؤها، واستقامت أُمورها، وقامت مصنوعاتها، فالكلام على التقريب للذهن، كما تقول: المِلك نور الأمة؛ أي به قوام أمورها وصلاح جملتها، والأمر في المِلك مجاز وهو في صفة الله تعالى حقيقة محضة، إذ هو الذي أبدع الموجودات وخلق العقل نوراً هادياً؛ لأن ظهور الوجود به حصل؛ كما حصل بالضوء ظهور المبصرات..." (الأصفهاني، ج10 ص505)

-ويجب فيما يبدو لي أن تكون هناك علاقة ورابطة تربط بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، أو مسوّغ لخروج المعنى من أصل الوضع إلى المجاز، كالاستعارة، أو المجاز، أو التطور الدلالي، وغير ذلك حتى لا تكتسي الألفاظ بغير دلالاتها، وقد أشار إلى ذلك ابن عطية الأندلسي وقال: "ولا وجه لإخراج اللفظ عن مفهوم كلام العرب لغير علة تدعو إلى ذلك"(ابن عطية، ج8 ص158)، وهذا يوضح فهم شُراح الحديث النبوي لدور الدلالة الوضعية في إبراز المعنى في نص الحديث الشريف والاستعانة بالشواهد المتنوعة والمتعددة من قرآن وحديث وشعر وأمثال، وإليك الأمثلة في المطلب الآتي، ثم أتبعها بالحديث عن الدلالة الصوتية .

المطلب الأول: الدلالة الوضعية وأثرها في الشرح

من أمثلة استخدام شراح الحديث النبوي الدلالة الوضعية لشرح وتفسير ألفاظ الحديث الشريف ما يأتي:

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَجُلًا طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا، فَتَزَوَّجَتْ فَطَلَّقَ، فَسُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَحِلُّ لِلْأَوَّلِ؟ قَالَ: (لَا حَتَّى يَذُوقَ عُسَيْلَتَهَا كَمَا ذَاقَ الْأَوَّلُ) (البخاري ج7 ص43 ح 5261) فالذوق هنا مستعار

كما قال تعالى: (ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ [الدخان: 49]) وكما قال: (..فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ[النحل من الآية: 112]) وكما قال أبو سفيان: ذق عقق، وحقيقة الذوق إنما هي في حاسة اللسان، وهي في هذا كله مستعارة فيما بوشر بالنفس، والوبال سوء العاقبة، والمرعى الوبيل هو الذي يتأذى به بعد أكله(ابن عطية، ج5 ص47).

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَرَأْسُهُ فِي حَجْرِي وَأَنَا حَائِضٌ) (البخاري ج7 ص43 ح 5261) وواضح أن السيدة عائشة رضي الله عنها تقصد الحيض الذي يأتي النساء، وهو من حاضَ تحِيض، حِيضيًا وحَيْضًا فهي حائِض، حاضتِ المَرْأَةُ: سال دمُ حَيْضِها من رحمها، (وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) (عمر، 2008، ج1 ص549.(

وأمثلة ذلك كثيرة في لغة الحديث الشريف حين يطلق اللفظ ويراد به أصل معناه الوضعي في اللغة العربية، ولا يتعدى هذا المعنى لا عن طريق التغيير الدلالي ولا عن طريق المجاز.

وبالنظر في كتب شراح الحديث النبوي نجد أن أكثرها يعتمد في استخراج المعنى على النظر في الدلالة المعجمية للكلمة أولاً فضلاً عن وضعها في سياقاتها المسموعة عند العرب حتى يستطيع استنباط المعنى المراد من نص الحديث الشريف.

المطلب الثاني: الدلالة الصوتية وأثرها في الشرح

إن مفهوم الوحدة الصوتية عند القدماء يتمثل في الحروف، على أنه لا يمكن الفصل بين الوحدات الصوتية والسياق المقالي الداخلة فيه؛ لأنها لبنة في بناء أكبر لا يمكن أن تؤدي وظيفتها إلا في إطاره، ويمكن إجمالاً تحديد وظيفة الوحدة الصوتية في سياقها المقالي في حمل وأداء المعنى الوضعي أو المعجمي،

وكذلك أداء وظيفة صرفية أو نحوية، وكذلك تحقيق الانسجام الصوتي في سياق ما، بأن تكون بدلاً من غيرها. (البركاوي، 1411ه، ص118)

وقد تؤدي عملية الإبدال الصوتي هذه إلى تغيير في صورة الكلمة، أو تغيير في صورة الكلمة وتغير في معناها أيضاً، فمن أمثلة التغيير في صورة الكلمة والمعنى واحد في الصورتين كما في (رفح، ورفّه، ورفّأ)، ومن أمثلة التغيير في دلالة اللفظ ما ورد في توجيه المفسرون لاختلاف القراء في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً...[العنكبوت: 58]) حيث قال: "قرأ الجمهور: (لَنُبَوِّئَنَّهُم) بالباء، أي لنترلنّهم و لنمكننهم؛ ليدوموا فيها...وقرأ حمزة: (لَنُثَوِّئَنَّهُم) (الداني، 1996، ص141) من أثوى يثوى، وهو معدى ثوى بمعنى أقام" (ابن عطية، ج11 ص413).

ومن الأمثلة التي توضح دور الحرف وأثره في تفسير اللفظ داخل الحديث الشريف:

عن أبي هريرة: "أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: (هَلْ تُمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟) قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (فَهَلْ تُمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟) قَالُوا: لَا، قَالَ: (فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْ فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الشَّمْسَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الْقَمَرَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الطَّوَاغِيتَ وَتَبْقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا فَيَأْتِيهِمْ اللَّهُ فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ فَيَأْتِيهِمْ اللَّهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ أَنْتَ رَبُّنَا فَيَدْعُوهُمْ فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنْ الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ وَكَلَامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ) (البخاري، ج1 ص160 ح 806)، وبالنظر إلى كلمة (الصراط) فقد وردت في لغة العرب بصياغات صوتية مختلفة تجسدت في سورة الفاتحة في قوله تعالى: (اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ[الفاتحة: 6]): "اختلف القراء في (الصِّرَاطَ) فقرأ ابن كثير وجماعة من العلماء : (السراط) بالسين، وهذا هو أصل اللفظة، قال الفارسي: ورويت عن ابن كثير بالصاد، وقرأ باقي السبعة غير حمزة بصاد خالصة(الداني،

1996،ص27)، وهذا بدل السين بالصاد لتناسبها مع الطاء في الإطباق فيحسنان في السمع، وحكاها سيبويه لغة، قال أبو علي: روي عن أبي عمرو السين والصاد...وقرأ حمزة بين الصاد والزاي، وروي أيضاً عنه أنه إنما يلتزم ذلك في المعرفة دون النكرة، قال ابن مجاهد: وهذه القراءة تكلف حرف بين حرفين، وذلك أصعب على اللسان، وليس بحرف يبنى عليه الكلام، ولا هو من حروف المعجم، ولست أدفع أنه من كلام فصحاء العرب، إلا أن الصاد أفصح وأوسع"(ابن عطية، ج1 ص119).

ولا أستبعد أن يكون مرجع هذا الإبدال في الأصل يعود إلى التطور الصوتي؛ لأنه قد ثبت أن السين هي الأصل ثم تطور هذا الأصل وانتقل إلى المخرج المجاور له وهو الصاد؛ لأن في النطق بالسين والطاء ثقل، فيُقصد من ذلك التخفيف بإبدال السين إلى الصاد، والدليل على ذلك أيضاً أن من العرب من خطا خطوة أخرى نحو التخفيف واستثقل الصاد المهموسة في مجاورة الطاء المجهورة فضارعوا الصاد بالطاء، أي نطقوا بها صاداً مجهورة مثل الزاي، وهذه الظاهرة تسمى (المماثلة)، حيث تم التقريب بين الأصوات المتنافرة في صفاتها لتحقيق الانسجام الصوتي بين الصوامت المكونة للكلمة(برجشتراسر،33،2003)، وعلى ذلك فإن وجه الاختلاف في القلب أو الإبدال إنما هو في الوحدة الصوتية، أما الإشمام أو المضارعة فهو في الصورة الصوتية أو الحروف الفروع، والإشمام لغة قيس.(الجندي، م د ت، ج1 ص208)

ومن صور الكشف عن المعنى بطريق الدلالة الصوتية شرح الحديث المروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ تُسْتَجَابُ لَهُ، فَأُرِيدُ إِنْ شَاءَ اللَّه أَنْ أَدَّخِرَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (الحميدي، ج3 ص45) فكلمة (أَدَّخِرَ) أصلها أذتخر، استثقل النطق بالذال والتاء لتقاربهما في المخرج فأبدلت التاء دالاً وأدغمت الذال في الدال فصارت (أَدَّخِرَ)، كما صنع في مدّكر، ومطّلع، بمعنى مضطلع وغير ذلك، نحو قول الشاعر(سلمى، 1964، ص54) :

إن الكَريمَ الذي يُعطيكَ نَائلَهُ عَفْواً وَيظْلِمُ أحْياناً فَيَطَّلِمُ

بالطاء غير منقوطة[معنى يطَّلم يظْطلم، أي يحتمل الظلم]. (ابن عطية، ج3 ص123)

ومثل ذلك (تَدّخرون) وأصله تذتخرون، وطبقاً لقانون التطور الصوتي، وهو تأثر الصوت الأضعف بالصوت الأقوى سابقاً كان أو لاحقاً؛ أدغمت الذال في التاء، فصار اللفظ (تدَّخرون) نحو اذّكر فهو مُذّكر، ومن العرب من يخطو خطوة أخرى نحو التخفيف فيبدل التاء دالاً ثم يبدل الذال دالاً ويدغم المثلين فصير اللفظ (تَدّخرون)، ومن العرب من يذهب خطوة أكبر نحو التخفيف فيقوم بحذف أحد المثلين، أي أنه لا يدغم، فيصير اللفظ (تَدْخرون) وتمثل ذلك في قراءة أبي السمال (تدْخَرون)، وقد نُسب الإبدال والإدغام في هذا الفعل إلى تميم، والحذف إلى كنانة.(الهائم، 1992، ص148)

ومن ذلك ما ورد عَنْ مُسَافِعِ بْنِ الْحَاجِبِ أَنَّهُ قَالَ: " وَجَدُوا حَجَرًا حِينَ نَقَضُوا الْبَيْتَ فِيهِ ثَلَاثُ صُفُوحٍ، فِيهَا كِتَابٌ مِنْ كُتُبِ الْأُوَلِ، فَدُعِيَ لَهَا رَجُلٌ فَقَرَأَهَا، فَإِذَا فِي صَفْحٍ مِنْهَا: أَنَا اللَّهُ ذُو بَكَّةَ [ص:237] صَنَعْتُهَا يَوْمَ صَنَعْتُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَحَفَفْتُهَا بِسَبْعَةِ أَفْلَاكٍ، وَبَارَكْتُ لِأَهْلِهَا فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ، وَفِي الصَّفْحِ الْآخَرِ، أَنَا اللَّهُ ذُو بَكَّةَ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَاشْتَقَقْتُهَا مِنِ اسْمِي، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ، وَفِي الصَّفْحِ الْآخَرِ، أَنَا اللَّهُ ذُو بَكَّةَ، خَلَقْتُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، فَطُوبَا لِمَنْ كَانَ الْخَيْرُ عَلَى يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ كَانَ الشَّرُّ عَلَى يَدَيْهِ"(الفِرْيابِي، 1997، 236) وقد وردت كلمة (بكة) في قوله تعالى: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ [آل عمران: 96]): "اختلف الناس في (بكة) فقال الضحاك وجماعة من العلماء: بكة هي مكة، قال ابن عطية: فكأن هذا من إبدال الباء بالميم على لغة مازن وغيرهم، وقال ابن جبير وجماعة كثيرة من العلماء: مكة الحرم كله، وبكة مزدحم الناس حيث يتباكون، وهو المسجد وما حول البيت" (ابن عطية، ج3 ص222)

ومما سبق يتضح فقه القدماء لطبيعة الوحدة الصوتية ووظيفتها، ومدى تأثيرها وتأثرها بغيرها من الوحدات الصوتية في إبدال حرف مكان حرف آخر داخل السياق ذاته، مع إيضاح ما يطرأ على الأصل الوضعي من تغيير في وحداته الصوتية تبعاً للهجات العرب، أو التطور الصوتي، أو الترادف، أو الرغبة في تحقيق الازدواج وتناسب الكلام، أو الرغبة في خفة اللفظ وسهولة النطق به، كما مَثَّلت الاختلافات

اللهجية أهم أسباب الإبدال، فقد وردت في (بكة ومكة)، بيد أنه لابد من جود علاقة صوتية بين الصوتين.

المبحث الثاني: الدلالة الصرفية والنحوية وأثرهما في شرح الحديث النبوي

من المعلوم أن النظام الصرفي والنحوي للغة بشكل عام له دوره في بناء المعنى متجاوزاً في ذلك الدلالة المعجمية الإشارية، إلى معان إضافية تركيبية تنشأ بسبب الصيغة الاشتقاقية التي تعيد اكتشاف الأصل المعجمي في إطار النظام الصرفي، مما يضيف دلالات أخرى لم تكن موجودة في الأصل المعجمي المطلق كما يفيد هذا النظام الصرفي أو النحوي جيداً في تعدد الدلالة من جهة، والمبالغة من جهة أخرى، والإشارة إلى ما خفي من الدلالات داخل اللفظ، كل ذلك من خلال الصيغة الصرفية التي تحمل المعنى، ويمكن إجمال بعض النماذج للمعالجة الصرفية والنحوية في المطلبين الآتيين.

المطلب الأول: الدلالة الصرفية وأثرها في شرح الحديث النبوي

يتعدد دور الدلالة الصرفية في الكشف عن المعنى من جوانب كثيرة، ومن أهم هذه الجوانب ما يأتي:

أولاً: تعدد دلالة الصيغة صرفيًّا، ويظهر ذلك في نوع من الاشتراك الصرفي حيث تتعدد الوظائف والمعاني التي تؤديها العلامات الصرفية – ومنها الصيغة — الأمر الذي يجعل المعاني المتعددة محتملة، إلا أن تدخل السياق اللغوي وغير اللغوي يحدد المعنى المراد، وينفي ما عداه خاصة مع الصيغ المزيدة وما تحتمله من إطلاق وتقييد، وكذلك من تعميم وتخصيص. (البركاوي، 1411ه، ص170).

أولاً: دلالة الصيغة الصرفية على المعنى المراد. ومن ذلك دلالة صيغة (استفعل) على معنى الطلب، فبناء استفعل إنما هو لطلب الشيء وتحصيله بالطلب (ابن عطية، ج14، ص477)، ومن ذلك في الحديث عن عروة عن أسماء قالت: "قَدِمَتْ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ وَمُدَّتِهِمْ إِذْ عَاهَدُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ ابْنِهَا فَاسْتَفْتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُهَا

قَالَ نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ" (البخاري ج4 ص103 ح 3183)، فقد أفادت صيغة (اسْتَفْتَيْتُ) أنها طلبت سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه صلى الله عليه وسلم أفتاها بصلة أمها.

ومثال ذلك صيغة (فعيل)، فقد ذكر المفسرون في تفسير قوله تعالى: "(مَالِك يَوْم الدِّين) فمن قرأ (مَالِك) فعلى فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ فَلَا تُخْفِرُوا اللَّهَ فِي ذِمَّتِهِ)، (البخاري ج1 ص87 ح 391)، فإذا نظرنا في الحديث نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (تُخْفِرُوا) والمعنى لا تخونوا الله ولا رسوله بتضييع حق المسلم الموصوف، وهنا يأتي السؤال: ما الفرق (خفر وأخفر) من حيث المعنى وما الذي تفيده الهمزة في الأخير؟ والجواب أن (خفر) بمعنى حمى وحفظ، وأخفر بمعنى غدر ونقض فالهمزة فيه للسلب، مثل: أشكيت الرجل إذا أزلت شكواه.

ومن ذلك المبالغة على وزن (فعَّال) عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ وَالْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ فِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ النَّارِ وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ اللَّهُمَّ اغْسِلْ عَنِّي خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالْبَرَدِ وَنَقِّ قَلْبِي مِنْ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنْ الدَّنَسِ وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) (البخاري ج8 ص79 ح6368)

أفاد استخدام صيغة المبالغة في اسم (الدَّجَّالِ) المبالغة؛ ذلك لأنه على وزن (فعَّال) من أوزان المبالغة، وأصله من الدَّجَلِ.

ومن المبالغة في الوزن أيضاً ما ورد عَنْ أَسْمَاءَ أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي ضَرَّةً فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ إِنْ تَشَبَّعْتُ مِنْ زَوْجِي غَيْرَ الَّذِي يُعْطِينِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ) (البخاري ج7 ص35 ح5219) فقوله (الْمُتَشَبِّعُ) هو المتكثر مما عنده بتجمل

وبتزين بالباطل، وأصله من التَّشبع من الشَّبع، وهو الذي يظهر الشِّبع وليس بشبعان، وكثيراً ما تأتي هذه الصيغة بمعنى التعاطي كالتَّكبُّر والتصنُّع، وفي الحديث هو الذي يتزين بزي أهل الصلاح رياءً .

ثانياً: الترادف بين الصيغ الصرفية، إن الترادف بين الصيغ الصرفية بمعنى اتفاق صيغتين صرفيتين في الدلالة على معنى واحد، يعد صورة تعكس وتؤكد احتمال تعدُّد دلالات الصيغة الاشتقاقية خارج السياق، من جهة أخرى تمثل نقطة التقاء الصيغتين في الدلالة على هذا المعنى الواحد نقطة الترادف بينهما بحيث يمكن استبدال إحداهما بالصيغة الأخرى دون اختلاف المعنى في السياق ذاته.

ومن أمثلة ذلك صيغتي (فعل) و(أفعل)، فقد ورد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: يَكُونُ عَلَى الرُّومِ مَلِكٌ لَا يَعْصُونَهُ – أَوْ لَا يَكَادُونَ يَعْصُونَهُ –، فَيَجِيءُ حَتَّى يَنْزِلَ بِأَرْضِ كَذَا وَكَذَا، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَنَا مَا نَسِيتُهَا، قَالَ: وَيَسْتَمِدُّ الْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى يَمُدَّهُمْ أَهْلُ عَدَنَ أَبْيَنَ عَلَى قَلَصَاتِهِمْ.(أبو عمرو، ج11، ص387) قال الشراح في (يَمُدَّهُمْ) هو من (مدَّ) وهو بمعنى (أمدَّ) ويقال: مَدَّ الشيءَ ومده ما كان مثله ومن جنسه، وأمدّه ما كان مغايراً له، تقول: مَدَّ النهر ومدَّه نهر آخر، ويقال أمدّه، قال اللحياني: يقال لكل شيء دخل فيه مثله فكثَّره: مدَّهُ يَمُدُّهُ مَدّاً، وفي التنزيل: (وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ[لقمان من الآية: 27]) ومادة الشيء ما يمده دخلت فيه الهاء للمبالغة، قال ابن قتيبة وغيره: مَدَدْت الدواة وأَمَددْتُها بمعنى، وقال القاضي ابن عطية: يشبه أن يكون (مددتها) جعلت إلى مدادها آخر، و(أمددتها) جعلتها ذات مداد، مثل قبر وأقبر، وحصر وأحصر، ومددنا القوم صرنا لهم أنصاراً، وأمددناهم بغيرنا، وحكى اللحياني أيضاً أمدّ الأمير جنده بالخيل ، وفي التنزيل: (وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ[الإسراء من الآية: 6])، قال بعض اللغويين: (وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ) يمهلهم ويُلجُّهم [أي يزيدهم في اللُجاج والعناد]، قال ابن عطية: فتحتمل اللفظة أن تكون من المد الذي هو المطل والتطويل، كما فُسر في: (فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ[الهُمَزَة : 9]) ويحتمل أن تكون من معنى الزيادة في نفس الطغيان، والطغيان الغلو وتعدي الحد".(ابن عطية، ج1 ص177)

ومن ذلك ما ورد عن عبادة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ الْعَمَلِ) (البخاري ج4 ص165 ح3435) بالوقوف على دلالة الفعل (أدخله) نجد أنه من الوزن (أفعل)، والباحث عن الفرق بين (أفعل – فعل) نجد أن فعل غالباً ما يكون في الإفعال السهلة القريبة، فلو أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بالفعل (دخل) لكان تحقيق دخول الجنة سهلاً ميسوراً، ولكن دخول الجنة يستوجب الكثير من العمل وبالبعد عن الشهوات ومحاربة الهوى، وفوق ذلك كله رحمة الله تعالى، ولهذا آثر نص الحديث الشريف التعبير بصيغة (أفعل) للتعبير عن هذا المعنى.

ثانياً: العدل عن الصيغة الصرفية إلى أخرى، العدل في اصطلاح النحويين هو "خروج الاسم عن صيغته الأصلية إلى صيغة أخرى" (الحنفي، 2000، ص128) ويعد العدل عن الصيغة إلى أخرى في الاستخدام نوعا من التنويع الذي يفترض اتفاق دلالة الصيغة التي عُدِل إليها في ضوء السياق، وهذا يمكن أن يعد نوعاً من ترادف الصيغ، ومن الأمثلة قولهم في تفسير صيغة (مَّثْنَى) في ما ورد عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (صَلَاةُ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى، فَإِذَا خِفْتَ الصُّبْحَ فَأَوْتِرْ بِوَاحِدَةٍ) (الطبراني، ج1 ص288)ومثلها في قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[فاطر: 1]): "(مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ) ألفاظ معدولة من اثنين وثلاثة وأربعة، عُدلت في حال التنكير فتعرفت بالعدل، فهي لا تنصرف للعدل والتعريف، وقيل: للعدل والصفة، وفائدة العدل الدلالة على التكرار؛ لأن (مَّثْنَى) بمنزلة قولك اثنين اثنين، وقال قتادة: إن أنواع الملائكة هي هكذا منها ما له جناحان، ومنها ما له ثلاثة، ومنها ما له أربعة، ويشذ منها ما له أكثر من ذلك.."(ابن عطية، ج12 ص213).

المطلب الثاني: الدلالة النحوية وأثرها في الشرح

إن أصغر وحدات التركيب النحوي تبرز أهميتها من حيث إن تغيرها يؤدي إلى تغير المعنى النحوي، وهذه الملامح تختلف من لغة إلى لغة بحسب ثراء أبنيتها وتراكيبها، وهي في اللغة العربية الترتيب والاختيار والصيغة والأداء والإعراب، وهذه الملامح تمثل جزءا من السياق يسهم في تحديد المعنى المراد من الجملة من خلال الوظائف التي تشغلها الوحدات النحوية في السياقات المتنوعة والتي يمكن اعتبارها وفقا للرؤية العربية ما يُعرف بالمعاني النحوية وتنقسم إلى قسمين:

الأول: المعاني النحوية الإفرادية: بحيث تؤدي الكلمات وظيفتها في سياق الجملة من خلال موقعها فيما يعرف بالأبواب النحوية، مثل الفاعلية والمفعولية والإضافة وغيرها ويُطلق عليها المعاني الإفرادية.

الثاني:- المعاني النحوية للجمل أو المعاني التركيبية: كالخبر والاستفهام والتعجب والأمر والنهي... (البركاوي، 1411ه، ص201) وقد فطن شُّراح الحديث للنوعين في استخراج المعنى من النص الشريف في الحديث، ومن أمثلة ذلك عندهم:

أولاً: مثال المعاني النحوية الإفرادية: وله صور منها :

1 .اختلاف الحركة الإعرابية وأثر ذلك في الدلالة على المعنى، ومن ذلك ما ورد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ) (البخاري ج8 ص139 ح 6682) فقوله: (كَلِمَتَانِ) خبر مقدم وما بعده من قوله (خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ) صفة، ويترتب على ذلك أن المقصود بقوله (كَلِمَتَانِ) هو من باب إطلاق الكلمة على الكلام، أي من باب المجاز المرسل لعلاقة الجزئية، ككلمة الشهادة أي كلامان، ولكن في إعراب (سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ) وجهان:

الوجه الأول: أنهما في محل رفع مبتدأ، لأنهما وإن كانتا منصوبين على الحكاية فهما في محل رفع.

الوجه الثاني: اختار بعض النحاة أن يكون (سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ) هو الخبر، وهو متأخر لفظاً، والأص عدم مخالفة اللفظ محله إلا لموجب يوجبه، ولأنه محط للفائدة بنفسه، أما (كلمتان) فإنه يكون محطاً للفائدة باعتبار وصفه بالخفة على اللسان، والثقل في الميزان والمحبة للرحمن، لا باعتبار ذاته، بل بملاحظه وصفه بما ذكر.

والأَوْلى في وجهة نظري الوجه الثاني، وهو جعل (سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ) خبر، وهو من قبيل الخبر المفرد بلا تعدد، لأن كلاً من (سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ) مع عامله المحذوف الأول و(سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ) مع عامله المحذوف الثاني إنما أريد لفظه، والجملة المتعددة إذا أريد لفظها فهي من قبيل المفرد الجامد ولذا لا تتحمل ضميراً.

وقد يقال بل الأولى أن (سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ) مبتدأ؛ لأنه مبتدأ، والحجة لأنه معلوم، ولفظ (كَلِمَتَانِ) باعتباره وصفاً بما ذكر هو الخبر؛ لأنه مجهول، والحجة أن القاعدة تقول: إذا اجتمع معلوم ومجهول يجعل المعلوم مبتدأ والمجهول خبر، لكن الجدير بالذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قدّم الخبر على المبتدأ لتشويق السامع إلى المبتدأ، فيكون أوقع في النفس وأولى في القبول؛ لأن الحاصل بعد الطلب أعز من المنساق بلا تعب.

ومنه ما ورد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم أي الإسلام خير قال: (تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ) (البخاري ج1 ص12 ح12) فالفعل (تُطْعِمُ) فعل مضارع مرفوع لأنه في الأصل أن تطعمَ، حذفت (أن) فصار الفعل مرفوعاً، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر أي إطعام، ثم إن هذا المصدر خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو إطعام الطعام، ومفعولي الفعل (تطعم) أحدهما أنه (الطعام) المذكور في الحديث، والمفعول الثاني محذوف

والتقدير: أن تطعم الخلق الطعام مسلمين كانوا أو غير مسلمين، فرضاً كالنذر أو سنة كالعقيقة ونحو ذلك

ومنه ما ورد عن هريرة قال جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي قَالَ أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أَبُوكَ وَقَالَ ابْنُ شُبْرُمَةَ وَيَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ مِثْلَهُ). (البخاري ج8 ص2 ح5673(

في قوله (قَالَ أُمُّكَ) نجد أن المعنى لا يستقيم إلا بتأويل محذوف، لكن النحاة اختلفوا في هذا المحذوف على أقوال: الأول: أن المحذوف هو المبتدأ، والتقدير: أحق الناس أمك، والثاني: أن المحذوف هو الخبر، والتقدير: أمك أحق الناس. بيد أن المستفاد من ذلك كله أن نص الحديث الشريف معجزة لأنه آثر الإيجاز على الإطناب.

ومن ذلك عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ) (البخاري ج8 ص102 ح6490)، ففي كلمة (أسفل) وجوه إعرابية منها: الأول: النصب على أنه ظرف مكان، ويكون المعنى على المجاز، والثاني: الرفع على أنه خبر، ويكون المراد بـــ(مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ) من اسم موصول مبتدأ، وجملة (هُوَ أَسْفَلُ) صلة الموصول لا محل لها من الإعراب.

ومن ذلك ما ورد عن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى رَجُلَانِ دُونَ الْآخَرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ أَجْلَ أَنْ يُحْزِنَهُ) (البخاري ج8 ص65 ح6290) ففي كلمة (ثلاثة) وجوه إعرابية منها: الأول: النصب (ثَلَاثَةً) لأنه خبر كان، لأن الضمير المتصل اسم كان، وثلاثة خبرها، الثاني: الرفع (ثَلَاثَةٌ) على أنه بدل من اسم كان.

2 .وقد يكون اختلاف دلالة حرف المعني مثل اختلاف دلالة (أو)، فيما ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال: (كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ

أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ) (البخاري ج8 ص89 ح 6416)، فقوله (أو) يحتمل أن تفيد معنى (بل) بمعنى الإضراب، وعلى ذلك فالمعنى: كن في الدنيا كأنك غريب بل عابر سبيل، ويحتمل أن تفيد معنى التخيير، والمعنى حينئذ لا يجمع بين المعطول والمعطوف عليه، والمراد كن في الدنيا إما غريب وإما عابر سبيل، وقد تكون أو بمعنى الإباحة وحينئذ يمكن الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه ويكون المراد كن في الدنيا كأنك غريب ويجوز أن تكون عابر سبيل كذلك.

ومن ذلك اختلاف دلالة (إذا) فيما ورد عن أبي بكرة فقال أين تريد قلت أنصر هذا الرجل قال ارجع فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ قَالَ إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ) (البخاري ج1 ص15 ح31)

الناظر في الحديث يدرك أن المعنى لا يتضح إلا ببيان المعنى المقصود من (إذا) فقد ذكر النحاة أن لها معاني كثيرة عندهم منها الظرفية والفجائية والشرطية، ولكن معناها هنا، يقتصر على الشرطية، وجواب الشرط محذوف والمعنى: الشرط بأدة الشرط إذا: إذا التقى المسلمان بسيفيهما وجواب الشرط هنا محذوف معناه: فقاتل أحدهما الآخر؛ وجاز حذفه لدلالة السياق على المعنى المقصود. إذا يستحيل أن يدخلا النار لمجرد اللقاء الذي لا قتال فيه.

ومن أمثلة ذلك أيضاً: عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ) (البخاري ج8 ص106 ح 6507).

فدلالة كلمة (مَنْ) يحتمل أن تكون موصولة، والمعنى الذي يحب لقاء الله يحب الله تعالى لقائه، ويحتمل أن تكون شرطية، والمعنى من يحب لقاء الله، وجواب الشرط: يحب الله تعالى لقائه.

ثانياً: مثال المعاني النحوية التركيبية، تظهر دلالة الكلمات مترابطة بعضها ببعض من خلال ما يراد منها بين الخبر والإنشاء، وإن كان النحاة قد عرفوا الخبر بأنه: المسند الذي تتم به الفائدة في الجملة الاسمية، أما الإنشاء فقد عرفوه بأنه ما يطلب به حصول شيء غير حاصل ويشتمل الإنشاء على الأمر والنهي والاستفهام والتمني والنداء وكذلك التحضيض لتضمنه معني التمني. (القزويني، 1982، ص78).

ومن أمثلة ذلك:

عن عائشة رضي الله عنها قالت جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (فَقَالَ تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ فَمَا نُقَبِّلُهُمْ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ) (البخاري ج8 ص7 ح5998)، فبالنظر إلى دلالة الاستفهام في قوله (أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ؟) تتنوع باعتبارات مختلفة بحسب غرض الاستفهام، فالهمزة الأولى للاستفهام الإنكاري التكذيبي.

وأجاز بعض شراح الحديث أن يكون المعنى على أن المراد من الاستفهام التوبيخ، والواو للعطف على مقدر بعد الهمزة، والمعني: أجعل الله تعالى الرحمة في قلبك، وأملك لك أن نزع الله تعالى هذه الرحمة من قلبك.

ومنه ما ورد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ فَلَا تُخْفِرُوا اللَّهَ فِي ذِمَّتِهِ)، (البخاري ج1 ص87 ح 391) فقد استطرد الحديث بذكر الخاص بعد العام، للتعظيم والاهتمام، لكن يحتمل أنه عطف (وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا) مع (وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا) على الصلاة، ذلك لأنه اليهود لمّا تحولت القبلة شككوا بقولهم: (مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا)، وهم الذين يمتنعون عن أكل ذبيحتنا، والمعنى على العطف من صلى صلاتنا و لم ينازع في أمر قبلتنا و لم يمتنع من أكل ذبيحتنا كما فعلوا،

ومن تنوع المقصود بصيغة القسم ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الصِّيَامُ جُنَّةٌ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَجْهَلْ وَإِنْ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ مَرَّتَيْنِ وَالَّذِي

نَفْسِي بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ يَتْرُكُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي) (البخاري ج3 ص24 ح 1894) فقوله (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ) بين ثنايا الحديث له دلالته، فالجملة في الأصل معناها القسم، وهو قسم كان يقسم به كثيراً، والغرض منه هنا التوكيد، لأن حال المخاطب ليس منكراً لكلام الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومما سبق يتضح فقه شراح الحديث النبوي لدور المعاني النحوية الإفرادية والتركيبية في علاقة الكلمات بعضها ببعض داخل النص، ودورها في تحديد المعنى من جهة أخرى، فلم يغفلوها بل إنهم أمعنوا النظر فيها وكانت سبباً في نشوء علوم كبرى مثل علم الصرف وعلم النحو وعلم البلاغة وغيرها.

المبحث الثالث: الدلالة السياقية وأثرها في الشرح

المقصود بالدلالة السياقية المعنى العام المستفاد من النص، وقد اهتم شُّراح الحديث النبوي اهتماماً بالغاً بهذا المعنى، وسنرى أثر ذلك في المطلبين الآتيين.

المطلب الأول: أنماط السياق ودوره في شرح الحديث النبوي

تتنوع أنماط السياق كثيراً في اللغة العربية، ولكن بعد دراسة أنماط السياق في الحديث الشريف من الناحية البلاغية (حنفي، 2018، ص772)، تبين أنها تجتمع في أربعة أنماط وهي :

أولاً: المجاز، وهو عبارة عن الطرق التي يسلكها الحديث الشريف في تعبيراته، والمقصود بالمجاز كما قال عبد القاهر: ذكر المعنى المرادف للمعنى الحقيقي أو شبيهه (الجرجاني، 1992، 297)، أو كما يقول الخطيب القزويني: الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح التخاطب؛ لعلاقة وقرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي، وواضح هنا أن المقصود بالمجاز ليس مجرد المجاز المرسل، وإنما المجاز اللغوي عامة.

ومنه ما ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا) (البخاري ج9 ص4 ح 6874)، فهذه من أجمل الصور النحوية التي يدل عليها سياق الكلام ذلك لأنه لا يمكن فهم المعنى العام من الحديث إلا من خلال الوقوف على دلالة كلمة (السِّلَاحَ)، مجموعة مع باقي الحديث، ذلك أن السياق لا يقتضي أن يحمل العدو السلاح ويظل المسلمون إلى أن يحمله، فهذا يتنافى مع قوله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)(التوبة: 60) لذلك أفاد المعنى أن المقصود من سياق الحديث (مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا) ليس على ظاهر اللفظ من حمل السلاح على المسلمين، وإنما يحمل المعنى دلالة أخرى مجازية يمكن كشفها عن طريق فهم الكناية، فالكلام كناية عن المقاتلة أو القتل لأنه يلزم من حمل السلاح حصول القتال في الغالب، والمعنى المستفاد من قوله (فَلَيْسَ مِنَّا) الزجر والتخويف.

ثانياً: المقابلة أو المشاكلة أو ازدواج الكلام وهي أن يستعمل لفظ مجازاة للفظ آخر وإن كان مخالفاً في مفهومه وفحواه(صافي، 1418ه، ج 8 ص427)، أو أنْ يذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته، وذلك حين يتبع اللفظُ اللفظَ ويختلف المعنيان وحينئذ تظهر الغرابة والغموض، كما في قوله تعالى: (وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ [آل عمران : 54]) وقوله تعالى: (وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ[الشورى: 40])، وكثيراً ما تأتي المشاكلة في نسبة الأفعال المذمومة أو التي لا تليق إلى ضمير لفظ الجلالة، وتفسير ذلك ما ذكر معه من لفظ آخر مسند لمن يليق به.

ومن ذلك في الحديث عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً) (البخاري ج9 ص121 ح 7405)

وبالنظر في الحديث يتضح أن المعاني المنسوبة إلى الله تعالى كلها ليست على سبيل الحقيقة وإنما على سبيل المشاكلة، وهي قوله: (ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي)، وقوله: (ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ)، وقوله: (تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا)، وقوله: (تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا)، وقوله: (أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)

ومن أمثلة ذلك أيضاً: عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ) (البخاري ج8 ص106 ح 6507).

ثالثاً: أن يكون الكلام جارياً مجرى المثل، وفي ذلك يقول ابن قتيبة: "العرب تقيم المثل مقام النفس فتقول: مثلي لا يقال له هذا، أي أنا لا يقال لي، قيل: ونسبة المثل إلى من لا مثل له قولك: فلان يده مبسوطة"(الآلوسي، 1994، ج25 ص 18)، ومعلوم أن الأمثال يجري في سياقها ما لا يجري في سياق غيرها، ومن أمثلة ذلك قول ابن عطية في تفسير قوله تعالى: (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ[الأعراف: 58]): "من أراد أن يجعلها مثالاً لقلب المؤمن وقلب الكافر، فذلك كله مترتب لكن ألفاظ الآية لا تقتض أن المثال قصد به ذلك...وهذا كما تقول لمن تغض عنه: أنت كما شاء الله، فهذه عبارة تعطى مبالغة في مدح أو ذم..." (ابن عطية، ج5 ص542).

ومن ذلك في الحديث ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنها قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى ثَالِثًا وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ) (البخاري ج8 ص92 ح 6436)، فقوله (يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ) مثل تستعمله العرب في الإنسان الذي لا يشبع، وقيل هو كناية عن الموت.

ومن ذلك ما ورد عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ حُنَيْنٍ: "الْآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ"، ثُمَّ قَالَ: "هُزِمُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، هُزِمُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ"(الطبراني، ج5 ص20)، وقال ابن دريد: قال أبو بكر: وهذه الكلمة لم تُسمع إلا منه صلى الله عليه وآله وسلّم، وأضاف الزبيدي: وهو من

فَصِيحِ الكَلامِ (الزبيدي، ج15 ص54)، وقال ابن منظور: وهو من فصيح الكلام عبر به عن اشتباك الحرب وقيامها على ساق، وقال الأصمعي: الْوَطِيسُ حجارة مدورة فإذا حَمِيَتْ لم يمكن أحداً الوطءُ عليها، يُضرب مثلاً للأمر إذا اشتد: "قد حمي الوطيس".(ابن منظور، ج12 ص85)

ومنه ما ورد عَنْ كَثِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ"، قال أهل اللغة: يُضْرَبُ لمن أُصيب ونُكِبَ مرّة بعد أُخْرى، والمقصود: لا يُصاب بأذًى من خطأ واحد مرّتين، ليكُن حذرًا فطِنًا حتى لايُخدع مرتين. (الطبراني، ج7 ص83)

ومنه ما ورد عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْحَرْبَ خُدْعَةً عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"(النيسابوري،1998 ج4 ص211)، يقال: الحرب خُدْعةٌ وخَدْعةٌ، ولغة النبي صلى الله عليه وسلم: "الحربُ خَدْعةٌ"(الصُحاري،1999ج3 ص4) وفيه تحضيض على الحذر في الحرب والندب إلى خداع الكفار وأن من لم يتيقظ له لم يأمن أن ينعكس الأمر عليه، واتفقوا على جواز الخداع مع الكفار إلا أن يكون فيه نقض عهدهم، وفيه إشارة إلى أن استعمال الرأي في الحرب آكد من الشجاعة ولذا اقتصر عليه، نحو: الحج عرفة. (الهندي، 1967، ج5 ص397)

المطلب الثاني: دور السياق في تحديد المعنى داخل نص الحديث النبوي

أولاً: دور المجاز اللُّغَوي في تحديد المعنى من الحديث النبوي: المجاز اللغوي كما قال عبد القاهر: ذكر المعنى المرادف للمعنى الحقيقي أو شبيهه، وقد استعمل الحديث المجاز اللغوي في مواضع كثيرة؛ لأنه من لغة العرب التي يحدثهم بها، ومن ذلك عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا) (البخاري ج9 ص2 ح6862) وبالتأمل في سياق النص لحديث النبي صلى الله عليه وسلم يجد أن جملة (مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا) لا يمكن إدراك المراد منها إلا من خلال الوقوف على معنى النص كاملاً، فالنبي صلى الله عليه وسلم بهذا

النص إراد الكناية عن القتل العمد بغير حق، فمن فعل هذا كأنه خرج من الفسحة التي يعطيها الله تعالى لعباده، ومن ثم نلاحظ هنا أن المعنى المستفاد من النص لا يمكن كشفه إلا من خلال نص الحديث عن طريق فهم المجازات اللغوية الموجودة فيه.

ثانياً: دور الْجَارِي مَجْرَي الْمَثَل في تحديد المعنى من الحديث النبوي، معلوم أن الأمثال يجري في سياقها ما لا يجري في سياق غيرها؛ ولأن الحديث الشريف على لغة العرب وأعرافها في لغتها، فلابد لمن يتصدى للتفسير ألفاظ الحديث أن يكون مدركاً للغة العرب وأعرافها، فقد جاءت لغة الحديث على هذا الضرب وكشف الشُّراح عن الجارى مجرى المثل ودوره في بيان المعنى المراد من الحديث الشريف ومن ذلك عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ، وَأَنْ يُحِبَّ الرَّجُلَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) قال العيني: "قوله: (حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ) فيه استعارة بالكناية؛ وذلك لأن الحلاوة إنما تكون في المطعومات والإيمان ليس مطعوماً، فظهر أن هذا مجاز لأنه شبه الإيمان بنحو العسل ثم طوى ذكر المشبه به؛ لأن الاستعارة هي أن يذكر أحد طرفي التشبيه مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به، فالمشبه إيمان والمشبه به عسل ونحوه، والجهة الجامعة –وهو وجه الشبه الذي بينهما– الالتذاذ وميل القلب إليه، فهذه هي الإستعارة بالكناية، ثم لما ذكر المشبه أضاف إليه ما هو من خواص المشبه به ولوازمه وهو الحلاوة على سبيل التخيل، وهي استعارة تخييلية وترشيح للاستعارة".(العيني، ج1ص149)

ومنه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ)، قال العيني: "وفيه استعارة

بالكناية بيانه أنَّ الوزن أنما يتصور في الأجسام دون المعاني، والإيمان معنى، ولكنه شبه الإيمان بالجسم فأُضيف إليه ما هو من لوازم الجسم وهو الوزن"(العيني،ج2 ص260)، وهنا نلاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم أثبت للمشبه وهو الإيمان أمر مختص بالمشبه به –الجسم- وهو الوزن، ذلك أن الوزن يتصور في الأجسام والإيمان من المعاني التي يستحيل أن توصف الوزن الذي هو لوازم الأجسام، وقد أفادت هذه الاستعارة المكنية بيان منزلة الإيمان وفضله.

ومن كل ما سبق يتضح أن شراح الحديث النبوي عالجوا ووفقوا بين الأحادث التي تحمل الدلالة فيها بعض المجاز بأنواعه المختلفة مثل الاستعارة أو الكناية أو غيرها، واعتمدوا في الشرح على أصل لغة العرب وأصل الدلة اللغوية والدلالة الخارجة عنها بما يوافق نهج العربية ولا يبتعد عن أساليبها، ويبرز دور السياق في ذلك من خلال إبراز المعنى وتشخيصه كأنه ماثل للمتلقى نصب عينيه .

الخاتمة

بعد هذه الدراسة وضح بما لا يدع مجالاً للشك فهم شراح الحديث الشريف لدور أنواع الدلالة الوضعية والصوتية والصرفية والنحوية والساقية في إبراز المعنى في نص الحديث الشريف وأكدوا لذلك بالاستعانة بالشواهد المتنوعة والمتعددة من قرآن وحديث وشعر وأمثال.

دقة شُّراح الحديث النبوي وأمانتهم في التفسير والدليل أنهم يجيزوا خروج المعنى عن دلالته الأصلية إلا لسبب واضح ومحدد كأن يكون من باب المجاز أو الاستعارة أو التطور الدلالي، و لم يكتفوا بهذا وإنما استشهدوا لهذا الخروج بأمثلة من كلام العرب شعراً ونثراً للتأكيد على صحة ما يقولون، وهذا يدل على تحقق الشُّراح من كل صغيرة وكبيرة قبل استنباط الأحكام والمعاني من الحديث الشريف.

يتضح فقه شُّراح الحديث النبوي القدماء لطبيعة الوحدة الصوتية ووظيفتها، ومدى تأثيرها وتأثرها بغيرها من الوحدات الصوتية في إبدال حرف مكان حرف آخر داخل السياق ذاته، مع إيضاح ما يطرأ

على الأصل الوضعي من تغيير في وحداته الصوتية تبعاً للهجات العرب، أو التطور الصوتي، أو الترادف، أو الرغبة في تحقيق الازدواج وتناسب الكلام، أو الرغبة في خفة اللفظ وسهولة النطق به، كما مَثَّلت الاختلافات اللهجية أهم أسباب الإبدال، كما في (بكة ومكة)، بيد أنه لابد من جود علاقة صوتية بين الصوتين.

أجاز شُّراح الحديث النبوي تبادل الوحدات النحوية بشرطين: الأول: أن يتسع المعنى والسياق لذلك، والثاني: أن ينص أئمة اللغة الثقات على جواز هذا التبادل.

كما فقه شُّراح الحديث النبوي دور المعاني النحوية الإفرادية والتركيبية في علاقة الكلمات بعضها ببعض داخل النص، ودورها في تحديد المعنى من جهة أخرى، فلم يغفلوها بل إنهم أمعنوا النظر فيها وكانت سبباً في نشوء علوم كبرى مثل علم الصرف وعلم النحو وعلم البلاغة وغيرها.

الرد على كل من زعم أن لغة الحديث تخرج عن العرف العام للغة العرب، بأن ذلك لا يجاوز العدم؛ لأن لغة الحديث الشريف لغة سامية تحتاج إلى من يكشف أسرارها ويبحث عن مكنونها.

راعى شُّراح الحديث النبوي الفرق بين دلالة اللفظ خارج سياقه مفرداً ومدى احتماله لتعدد الدلالات، وكذلك وضعه في السياق وتقييد السياق له باحتماله دلالة واحدة، وجواز تعدد دلالة اللفظ داخل السياق لكن باعتبارات مختلفة، إذا يستحيل أن يدل اللفظ على أكثر من معنى داخل السياق باعتبار واحد، مما يكشف بدوره مثول الدرس الدلالي الحديث عند العلماء القدماء إذ كانت الثقافة الشمولية العلمية أكثر إلحاحاً عندهم من غيرها، ولذلك أرى أنه لا تختلف الدراسات اللغوية الدلالية عند القدماء والمحدثين إلا في المصطلحات وإن اتفقت في المعالجة.

وأخيراً إن لغة الحديث جاءت على لغة العرب وأعرافها في لغتها، فلابد لمن يتصدى لشرح واستنباط الأحكام منها أن يكون مدركاً للغة العرب وأعرافها، فقد جاءت لغة الحديث على هذا الضرب.

توصيات البحث: يوصي البحث بضرورة البدء في تأليف كُتُبٍ خاصة تكشف النقاب عن أسرار الحديث الشريف الأسلوبية مقارنة بالأساليب العربية؛ لإظهار إعجاز نص الحديث الشريف في هذا المجال، من جهة، وتفيد الدارسين للعربية وللقرآن الكريم من جهة أخرى.

ضرورة إفراد دراسة الدلالات اللغوية في السياقات اللغوية العربية ومقارنتها باللغات الأخرى كنوع من الدراسة اللغوية المقارنة لنكشف عن مدى رقي السياقات اللغوية العربية وبالأخص سياق الحديث الشريف .

يوصي البحث بعمل دراسات مقارنة وموازنة بين الشُّراح في المباحث الدلالية بعامة، وبالأخص في قضايا: الدلالات اللغوية، والعلاقات الدلالية، ومناسبة الألفاظ للمعاني، وبيان أوجه الاتفاق والاختلاف، والتأثير والتأثر بين القدماء من جهة، وبين القدماء والمحدثين من جهة أخرى .

المصادر والمراجع

الأصفهاني، الحسين بن محمد، *الأغاني*، تحقيق سمير جابر ط. دار الفكر بيروت، الثانية من دون تاريخ .

الأزهري، أبو منصور، *تهذيب اللغة* ، تح عبد السلام محمد هارون وآخرون ط الدار المصرية للتأليف، 1967م .

أبو عروة البصري، معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي، *الجامع*، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي بباكستان، وتوزيع المكتب الإسلامي ببيروت، الطبعة الثانية، 1403 هـ

البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، *الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه*، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى 1422هـ

البركاوي، دكتور عبد الفتاح، *دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث*، ط. دار المنار القاهرة، 1991م.

برجشتراسر، *التطور النحوي للغة العربية*، ترجمة د. رمضان عبد التواب، ط الخانجي، الرابعة 2003م.

ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب، *المحرِّر الوجيز*، تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، والسيد عبد العال إبراهيم، ط، دار الفكر، ودار الكتاب الإسلامي، من دون تاريخ.

ابن الجزري، *النهاية في غريب الحديث والأثر*، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، ط. المكتبة العلمية بيروت ، 1399هـ، 1979م.

ابن أبي سلمي، زهير، *ديوان زهير*، ط دار صادر بيروت 1384 هـ - 1964 م .

ابن منظور، محمد بن مكرم، *لسان العرب*، ط. دار صادر بيروت الطبعة الثالثة 1414هـ.

ابن حنبل، الإمام أحمد بن محمد بن حنبل *تحقيق أحمد محمد شاكر*، ط. دار الحديث القاهرة، الطبعة الأولى، 1416 هـ 1995م

الحميدي، محمد بن فتوح، *الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم*، تحقيق د. علي حسين البواب ط. دار النشر، ودار ابن حزم، لبنان بيروت الطبعة الثانية ، 1423هـ 2002م.

الدينوري، ابن قتيبة، *غريب الحديث*، تحقيق د. عبد الله الجبوري، ط. مطبعة العاني بغداد، الأولى، 1397ه.

الزبيدي، محمّد بن محمّد، *تاج العروس*، ط. بيروت لبنان.

السباعي، د. مصطفي، *السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي*، ط. دار الوراق، المكتب الإسلامي 2000م.

العيني، بدر الدين الحنفي، *عمدة القاري شرح صحيح البخاري*، ط. دار الفكر بيروت.

عمر، دكتور أحمد مختار، *علم الدلالة*، دار العروبة، الكويت، 1982م.

عمر، د. أحمد مختار، *علم الدلالة*، ص 69، ط. عالم الكتب، الخامسة 1998م.

عمر، د أحمد مختار عبد الحميد، *معجم اللغة العربية المعاصرة، ط. عالم الكتب*، الطبعة الأولى، 1429 هـ2008م.

عبد التواب، دكتور رمضان، *التطور اللغوي مظاهر وعلله وقوانينه*، ط الخانجي 1417هـ، 1997م.

الطبراني، سليمان بن أحمد، *المعجم الكبير*، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط. مكتبة العلوم والحكم، الموصل العراق، الطبعة الثانية ، 1404هـ 1983م.

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، *المعجم الأوسط*، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، ط. دار الحرمين القاهرة، بدون تاريخ.

الفِرْيابِي، أبو بكر جعفر بن محمد بن الحسن بن المُسْتَفاض، *كتاب القدر*، تحقيق عبد الله بن حمد المنصور، ط. أضواء السلف السعودية، الطبعة الأولى، 1418ه، 1997م

المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي، *مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري*، ط. المكتب الإسلامي، بيروت لبنان، السادسة، 1407 هـ 1987م.

النيسابوري، محمد بن عبد الله، *المستدرك على الصحيحين*، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط. دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 1411ه 1990م.

النيسابوري، ابن إسحاق، *مستخرج أبي عوانة*، أيمن بن عارف، ط. دار المعرفة، الأولى، 1419هـ 1998م.

الهندي، محمد طاهر بن علي، *مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار*، ط. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية الطبعة الثالثة، 1387هـ 1967م .